التعددية الدينية
وتوظيفها
في حوار الحضارات



رشيد السراي

التعددية الدينية

وتوظيفها

في حوار الحضارات

رشيد السراي

إصدار إلكتروني

آذار ٢٠٢١

الفهرست

المقدمة[١]

التعددية الدينية يتم تناولها في الغالب بصورة سلبية من قبل علماء الدين والكتاب الإسلاميين استناداً إلى المعاني المتداولة بشأنها، ولكن المرجع اليعقوبي (دام ظله) تناولها من زاوية ثانية في كلمته "التعدُّدِيّةُ الدينيةُ في أُفُقِ حِوارِ الحضارات"[٢]، حيث بدلاً من نقدها فقط طرح إمكانية توظيفها في حوار الحضارات. وقبل أن نخوض في كيفية ذلك ينبغي لنا أن نبين المعاني المتداولة للتعددية الدينية والموقف بإزاء كلاً منها.

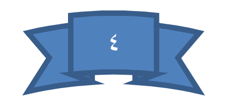
التعددية الدينية أو البلورالية (Religious pluralism) ، كفرع من فروع مباحث فلسفة الدين، مفهوم أُختلف فيه كثيراً، فوضعت له تعاريف بحسب الموقف من الحالة الواقعية لوجود أديان وعقائد مختلفة متناحرة في الغالب، تاريخياً يعزى ظهور هذا المفهوم إلى الكتابات التي تزامنت مع الصراعات الدينية في أوربا في القرن الثامن عشر وما بعده، وظهور فكرة البروتستانتية الليبرالية على يد الفيلسوف واللاهوتي الألماني فريدريك شلايرماخر (١٧٦٨-١٨٣٤) "فهو يذهب إلى إن الدين لب وقشور. أما اللب فهو الانسلاخ عن الذات والعروج الى الله. وأما القشور فهو سائر ما في الدين من التعليمات، والأحكام والطقوس"[٣]، وساهم في تطوير هذا المفهوم آخرون لعل من أبرزهم في العصر الحاضر جون هيك (١٩٢٢-٢٠١٢)، وكذلك إلى جهود بعض الفلاسفة ورجال الدين الهنود كرام موهان روي(١٧٧٢-١٨٣٣)، مؤسس حركة براهما ساماج (أي المجتمع الإلهي) والذي يؤمن بوحدانية الإله وبتساوي الأديان كلها، و سري راما كريشنا (١٨٣٦-١٨٨٦)، والذي كان يرى إن الاختلافات المتعارضة الموجودة بين الأديان لامعنى لها، وآخرين.

---

١ - نشر كبحث في مجلة الإصلاح الصدرة من مركز عين للدراسات في النجف الأشرف سنة ٢٠١٦م..

٢ - كلمة لسماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) تلبية لدعوة وجّهتها رئاسة جامعة الكوفة لسماحته للمشاركة في مؤتمر عُقد في جامعة الكوفة بالتعاون مع معهد الدراسات العقلية في النجف تحت نفس العنوان يومي ٢٠-٢١/ ٢/ ٢٠١٤ بحضور علماء ومفكرين ومهتمين بقضية التقارب بين الأديان من عدد من الدول الإسلامية، تحمل تسلسل (٤٠٣) ضمن سلسلة خطابات المرحلة.

٣ -التعددية الدينية، لمحمد مهدي الآصفي، مجلة ثقافتنا العدد ٤.



مع الاختلاف فيما يعنيه مفهوم التعددية الدينية، إلا إن موضوعها واضح وهو: "الموقف من تنوع الأديان والعقائد، والعلاقة بين دين وآخر، واعتقاد كل أصحاب كل دين أو عقيدة بصواب دينهم أو عقيدتهم وبطلان ما لدى الآخرين"، والذي قد يصلح تعريفاً شاملاً لكل الصور المختلفة.

تمييز التعددية الدينية عن غيرها

يجري الخلط بين التعددية الدينية ومفاهيم أخرى، أهمها:

١-التسامح الديني، وهو بحسب منظري التعددية الدينية يختلف عنها-رغم إنه موقف من التنوع-لكونه بحسب تصورهم لا يعترف بالآخر إلا تفضلاً، وسنعرف لاحقاً إنه يندرج ضمنها.

٢-التنوع الديني، فهو يحكي واقعية وجود عدة أديان ولا علاقة له بالموقف من هذا التعدد.

التنوع في الأديان وأسبابه

قبل الخوض في معاني التعددية والموقف منها يجب بحث أمر مهم، وهو لماذا تعددت الأديان، لأنه استناداً لتعدد تفسيرات ذلك تعددت المواقف من التعددية الدينية.

التنوع الديني واقع موجود، وهناك تقسيمات عديدة للأديان بين أرضية وسماوية، وبين وحدانية وغير وحدانية والأديان العالمية وغير العالمية والأديان العرقية وغير العرقية، والأديان الإبراهيمية وغير الإبراهيمية، والأديان الشعبية، وغير ذلك من التقسيمات، هنالك أكثر من ١٦ دين معروف، وإذا تم حساب كل الأديان مع مذاهبها وتشعباتها فإن العدد يصل لعدة آلاف!

هذا التنوع الكبير في الأديان، يتطلب آلية للتعامل معه، وهذه الآلية هي مفهوم التعددية الدينية، وهذه الآلية تعتمد على فهمنا لأسباب هذا التنوع، ومن هذه الأسباب:

١-إن الأديان كلها خطأ، وهذا هو موقف الإلحاد، والعلمانية في بعض مستوياتها، وبالتالي فإن الحل للتعامل مع هذه التعددية الدينية هو إلغاء الأديان أصلاً، وهذه النظرة واضحة البطلان-وليس هنا محل بيان هذا البطلان- على مستوى التبرير فضلاً إن الحل غير منطقي وإقصائي وغير إنساني بالمرة، وقد تم تجريبه وثبت في فشله[٤].

٢-سبب هذا التنوع هو الاختلاف في فهم الدين وتفسير نصوصه، وهذا ممكن بمستوى معين أو ضمن مذاهب أو تشعبات الدين الواحد، ولكن خارج هذا المستوى فهناك تقاطعات واضحة بين الأديان تتعدى مسألة الاختلاف في الفهم والتفسير.

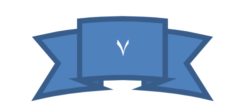
٣-سبب التنوع هو التراتبية بين الأديان ظهوراً، وبالتالي يحدث التنوع مع بقاء نسبة من أتباع الدين السابق على نفس الدين وعدم قبولهم بالدين الجديد، وهذا ممكن في الأديان الإبراهيمية[٥] دون غيرها، وبالتالي لا هذا لا يفسر سبب هذا التنوع الكبير.

٤-سبب التنوع هو إن الدين (الاعتقاد بوجود إله، وما يتبع ذلك من اعتقادات والتزامات)، أمر فطري، لذا يتخذ كل إنسان موقف منه، ومع أخذ الفهم الشخصي، ومحاولات الاستغلال والانتفاع، والمغريات، ومحاولات التشويه والتحريف، وكون الأمر محل اختبار، بنظر الاعتبار فإن التنوع أمر طبيعي، وهذا الرأي هو الذي نرجحه.

---

٤ -كمثال على ذلك موقف الدول التي تبنت النهج الإلحادي وتعاملها مع الدين، وكيف فشلت كل جهودها في القضاء على الدين، وقد بحثنا ذلك مطولاً في سلسلة مقالات لنا بعنوان "عندما يكون الإلحاد دولة".

٥ -نسبة إلى النبي إبراهيم (عليه السلام) وأهمها: اليهودية، والمسيحية، والإسلام.



معاني التعددية الدينية

عرفنا إن هناك تنوع ديني واضح، وعرفنا إن هناك تفسيرات عدة لهذا التنوع، ورجحنا إن سبب التنوع هو إن كون الدين أمر فطري، وإن الفهم الشخصي والتحريف والمغريات والاستغلال أمور واردة بحقه، وهي من أوجدت هذا التنوع الكبير.

التعددية الدينية هي -كما قلنا- الموقف من تنوع الأديان، وكيفية التعاطي مع الآخر المختلف معي دينياً، خصوصاً إن هذا التنوع ولد خلافات تجاوزت مرحلة الفهم وأنتجت صراعات وحروب طويلة.

قلنا في بداية البحث إن التعددية الدينية أُختلف فيها كثيراً، وسبب الاختلاف هو المعاني التي تنطلق من تفسير أسباب التنوع وبالتالي الموقف المطلوب منها، وأهم تلك المعاني -بحسب تتبعنا لكتب ومقالات متعددة- نذكرها مع التعليق عليها :

المعنى الأول:

ليس هناك دين حق مطلق ولا يوجد دين باطل محض، وإنما في كل دين توجد اعتقادات وتعاليم صائبة وأخرى خاطئة.

التعليق:

وهذا مسك للعصا من الوسط، ومحاولة للتسوية والتوافق غير موفقة لأن الواقع يخالفها، فهناك تناقض بين عدد كبير من الأديان في قضايا جوهرية، وبالتالي هناك أديان بطلانها كبير جداً بمستوى لا يمكن القبول به، وهناك أديان أقرب للصواب من غيرها، وبالتالي فإن نسبة الخطأ والصواب مختلفة، كما إن نفي الدين الحق تدل على عبثية وجود

الدين أصلاً وهذا يتنافى مع حكمة الخالق، كما إنه ما المائز بين الاعتقادات والتعاليم الصائبة والخاطئة؟ ووفقاً لأي معيار يتم ذلك؟

المعنى الثاني:

إن الأديان كلها حق، بتعبير آخر هي صراطات متعددة للوصول للحق.

التعليق:

التناقض على مستوى الاعتقادات والتعاليم واضح بين كثير من الأديان، فكيف تكون كلها صراطات للوصول للحق؟

كما إن القول بحقانيتها جميعاً يلغي الجدوى من تعددها ويخالف الحكمة من وجود الدين ووجود الاختبارات.

المعنى الثالث:

إن للدين ثوابت ومتغيرات[٦]، فالثوابت هي الانسلاخ عن الذات والاتجاه إلى الله، والمتغيرات-وهي موضع الاختلاف-هي سائر ما في الدين من أحكام وطقوس وتعليمات، والهدف من هذه المتغيرات الحفاظ على الثوابت وهي المشتركة بين كل الأديان، فليس لدين أن يدعي إنه يحتكر الحقيقة لنفسه دون الآخرين.

التعليق:

حتى على مستوى الثوابت يوجد اختلاف بين الأديان، فلو قلنا تنزلاً إن الطريق للانسلاخ من الذات والاتجاه إلى الله كيفيته غير مهمة، فكيف نتناسى إن تصور الأديان عن الله نفسه مختلف كثيراً؟

---

٦ -لب وقشور بتعبير شلايرماخر، وهذا المعنى ينسب له.



ثم إن الاختلاف في المتغيرات ما منشؤه؟ وما هي الضابطة في تمييز المتغير عن الثابت؟

محاولة أخرى للتهرب من المشكلة ومسك العصا من الوسط!

المعنى الرابع:

تفهم واقعية التنوع الديني، واستخدام أسلوب المداراة والتعايش السلمي، وتجنب الصراعات والحروب، وقبول الكثرة كواقع، وترك العمل على إلغاء الآخر وصيرورة الجميع واحداً.

التعليق:

وهذا معنى معقول، وهو محور حديث الشيخ اليعقوبي في كلامه عن المعنى الأول كما سيأتي.

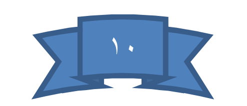
فالكثرة واقع وينبغي عدم إلغاء الآخر ومداراته دون أن يكون ذلك على حساب الحقيقة والصواب.

المعنى الخامس:

إن هناك ديناً واحداً ولكن له مظاهر متعددة بحسب الفهم، فبحسب هذا الفهم تنوعت الأديان، وبالتالي فإن البحث عن الحق والباطل والصحة والخطأ لا معنى له.

التعليق:

إن كان هناك دين واحد أليس من المنطقي أن نبحث عن هذا الواحد بين هذه الكثرة؟



ثم إن كان تعدد المظاهرة مصدره الفهم، فما الضامن لعدم وجود مظهر خاطئ نتاج فهم خاطئ؟

نعم تعدد الفهم هو السبب الرئيسي في التنوع، وكون الدين واحداً أمر صحيح أيضاً، ونعم هناك مستويات كثيرة لفهم الدين ولكن القول بصوابها جميعاً مجازفة كبيرة، والقول بان البحث عن الحق والباطل لا معنى له مجازفة كبيرة مجانبة للصواب.

المعنى السادس:

لا وجود لحقيقة واحدة بل هناك تنوع في الحقائق وكلها مقبولة.

التعليق:

كيف يمكن القبول بالتنوع في بصواب أفكار وعقائد متناقضة؟

هذه محاولة أخرى لمسك العصا من الوسط أيضاً، أو التخلي عن الحقيقة لأجل خلق جو توافقي يغطي على المشكلة ولا يحلها.

المعنى السابع:

إن كل دين يتضمن جزء الحقيقة.

التعليق:

وبالتالي يقوم البعض بالإيمان بتوليفة انتقائية من الأديان[٧] أو الإيمان بها كلها، وهذه أيضاً عملية تلفيقية تغض النظر عن الأخطاء والتناقضات.

المعنى الثامن:

ليس بالضرورة أن يكون دين الشخص الواحد هو مصدر الحقيقية المطلقة، وبالتالي افتراض وجود بعض الحقيقة في جميع الأديان الأخرى.

التعليق:

وجود جزء من الحقيقة في الأديان الأخرى-أو عدد منها- أمر ينبغي القبول به، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود دين حق، ولا يعني حاجة ذلك الدين إلى الترقيع من حقائق الأديان الأخرى.

المعنى التاسع:

دعوة لتوحيد الأديان[٨] أو المذاهب[٩] أو إيجاد تناغم بينها[١٠].

التعليق:

---

٧ -على سبيل المثال يحاول البعض التوليف بين المذاهب الأربعة من مذاهب أهل السنة عبر انتقاء مزاجي وهذا ما يسمي عامي باصطلاحهم أو قريب من ذلك، أو يقوم البعض بأخذ الآراء من أكثر من دين أو أكثر من فقيه كما أشار لذلك الشيخ اليعقوبي في كلمته كما سنرى لاحقاً.

٨ -كما في دعوة القس إسحاق تايلور سنة ١٨٨٣ للتوحيد بين الإسلام والمسيحية، وقريب منه الدعوة البهائية لتوحيد الأديان.

٩ -كالمسكونية في المسيحية على سبيل المثال، وهي دعوة لتوحيد المذاهب المسيحية.

١٠ -كفكرة التقريب على سبيل المثال.

وهي دعوات تحاول تجاوز الاختلافات أو غض النظر عنها أو إيجاد صورة تلفيقية للدين نتاج تجميع انتقائي أو غير ذلك، بعضها نتاج فهم خاص كما ذكرنا في بعض معاني التعددية وبعضها لأهداف الترويج لدين معين كما في دعوة البهائية.

وهذا كما ذكرنا اكثر من مرة محاولة لمسك العصا من الوسط-إن أحسنا الظن- والحال إن التوحيد غير ممكن بدون تنازلات، والتنازلات ستكون على حساب الحقيقة وهذا غير ممكن دينياً.

هذه تقريباً هي أشهر المعاني التي استطعنا تتبعها من معاني التعددية الدينية، وما نعتقد به إن القبول بالتنوع والتعاطي الإيجابي معه على أساس التسامح الديني، مع عدم ترك البحث والحوار ولكن على أساس الانطلاق من المشتركات هو الصورة المعقولة والمنتجة للتعامل مع تنوع الأديان أي الصورة المعقولة للتعددية الدينية.

التعددية هل هي مشكلة فقط؟

ينظر للتعددية الدينية على إنها مشكلة واقعية لا بد من إيجاد حل لها، وتطرفت الحلول بين القول بعدم جدوى الدين أو عدم وجود حقيقة أو عدم إمكانية الوصول لها إلى توحيد التناقضات في عنوان واحد!

نعم التعددية الدينية مشكلة واقعية، ولكن حلها لا يكون عبر ما تم ذكره وإنما عبر التالي:

أولاً: عبر الاعتراف بجدوى الدين، وجدوى الحقيقة، وإن هناك حقيقة تامة، وإن هناك أديان مشوهة ومحرفة.

ثانياً: لا بد من السعي لمعرفة الحقيقة والدين الحق وتمييزه عن غيره، والكسل عن ذلك بحجة تجنب الصراع، هي عملية ركون إلى الدعة والراحة، ودفن للحقيقة لا أكثر.

ثالثاً: إن السعي للحقيقة لا يكون عبر التنازع والصراع مع الآخر، أو عبر إقصاءه وإنما عبر الجدل بالتي هي أحسن[١١]، والانطلاق من المشتركات[١٢]، وبروح إيجابية مريدة للخير[١٣].

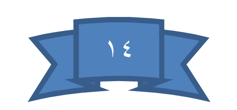
رابعاً: كل ما سبق لا يمنع من التعايش السلمي مع الآخر، وعدم ظلمه، أو الاعتداء عليه، أي ما يختصره البعض بعبارة التسامح الديني.

---

١١ -قال تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥).

١٢ -قال تعالى (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٦٤).

١٣ -قال تعالى (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت:٣٤).



توظيف التعددية الدينية في حوار الحضارات

من منطلق إن التعددية الدينية ليست مجرد مشكلة فقط، بل إنها واقع له أسبابه، انطلق المرجع اليعقوبي(دام ظله) في حديثه عن "التعددية الدينية في أفق حوار الحضارات"[١٤]، في كلمته التي سنتعرض لها بالشرح والتوضيح، ليتبين لنا كيف يمكن توظيف التعددية الدينية في حوار الحضارات.

قبل الحديث عن دور التعددية الدينية في حوار الحضارات، تحدث اليعقوبي عن معاني التعددية الدينية، وذكر منها معنيين هما:

المعنى الأول: تعدّد الأديان والطوائف في المجتمع الواحد[١٥]، أي عن واقعية تعدد الأديان، وضرب لها مثال بما في العراق حالياً، وعدها حالة طبيعية، وتحدث عن كيفية تعاطي المشروع الإسلامي مع ذلك حيث قال بالنص: " وقد تعامل المشرِّع الإسلامي معها كواقع موجود نتيجة حرية الاختيار وهو مبدأ أساسي في الشريعة الإسلامية (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة/٢٥٦) (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة/٦٢)"، وبخصوص هذه الفقرة ينبغي الحديث عن:

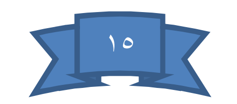
١-إن الشيخ اليعقوبي أرجع أحد أسباب تنوع الأديان إلى حرية الاختيار، وإنها مبدأ ديني "لا إكراه في الدين".

٢-إن المشرع الإسلامي اعترف بواقعية التعدد وتعاطى معه بإيجابية.

---

١٤ -عنوان كلمته التي أشرنا لها سابقاً.

١٥ -قلنا إن التنوع الديني هو غير التعددية الدينية فكيف يكون نوعاً لها؟
تتمة الكلام تبين إن المقصود ليس التنوع له نفسه وإنما التسامح والتعايش الديني الذي نتج عن التعامل مع هذه الحالة الواقعية.



٣-الاستشهاد بالآية "٦٢" من سورة البقرة، وهي وإن كانت محل جدل في تفسيرها إلا إن الإشارة للمشتركات بين الأديان المذكورة فيها واضحة وجدوى الإيمان بأحدها ولو بشرط عدم معرفة الدين الخاتم أو انطلاقاً من النوايا أو اعتماداً على الثوابت.

وفي تتمة كلامه تحدث عن منح الحقوق في الدولة الإسلامية على أساس المواطنة وليس على أساس الدين أو المذهب أو القومية، وضرب مثالاً بذلك من حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)[١٦]، حيث قال " بل تحمّل أمير المؤمنين (عليه السلام) انشقاقات رموز كبيرة في المجتمع أدّت إلى حروب طاحنة بسبب سياسته العادلة هذه بينما أراد الآخرون أن تتمايز الطبقات في الاستحقاقات والامتيازات، وهي ثقافة كان قد تطبّع عليها المجتمع وسار عليها، لكنّها مرفوضة في سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) ربيب رسول الله (صلى الله عليه واله).

والشواهد في حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) كثيرة كحادثته مع النصراني المكفوف حيث كان الإمام (عليه السلام) في شوارع الكوفة.. فمر بشخص يتكفف وهو شيخ كبير السن، فوقف (عليه السلام) متعجباً وقال (عليه الصلاة والسلام): (ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين إنه نصراني قد كبر وعجز ويتكفّف، فقال الإمام (عليه السلام): ما أنصفتموه.. استعملتموه حتى إذا كبر وعجز تركتموه) .[١٧]

ولما ولّى أمير المؤمنين مالك الأشتر مصراً، كتب له عهداً مطوّلاً في كيفية إدارة الدولة وكانت وصيّته للرعيّة ـ أي المواطنين ـ جميعاً على حدٍّ سواء، كقوله (عليه السلام)

---

[١٦] -ضرب المثال من حكومة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بدلاً من حكومة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعدم وضوح التنوع القومي والمذهبي في دولته إلا قليلاً.

[١٧] - وسائل الشيعة: ج١١ ص٤٩ باب١٩ ح١.هامش الكلمة.

(وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ)[18] وغيرها من دون ملاحظة أي اختلافٍ بينهم، فهم متساوون في حقوق المواطنة.

بل تصل حالة التعاطف والنظرة المتساوية للجميع على حدٍّ سواء إلى درجة بحيث يتقطّع قلب أمير المؤمنين (عليه السلام) أسفاً ويجد الموت أهون عليه لّما بلغه أن جنداً لمعاوية أغاروا على الأنبار وسلبوا النساء وفيهنّ غير مسلمات (معاهدات)، قال (عليه السلام): (وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالأُخْرَى الْمُعَاهَدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا، وَرِعَاثَهَا ، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالإِسْتِرْجَاعِ وَالإِسْتِرْحَامِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً).[19]"

والأمثلة والحديث عنها في نص الكلمة واضح ولا يتطلب شرح أكثر.

كما تحدث عن تبوأ المسيحيين واليهود والصائبة مواقع رفيعة في حكومات الدولة الإسلامية، وإنهم قد برعوا في أنواع العلوم ، وعن كون ذلك دليل على إنهم نالوا فرصاً متساوية مع المسلمين في ظل حكومات الدولة الإسلامية على تنوعها، ورغم كونها ليست الحكومات الإسلامية بالمعنى الصحيح الذي أراده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وشهرة ومعروفية أسماء العلماء من أبناء باقي الأديان في حكومات الدولة الإسلامية واضحة.

المعنى الثاني: تعدّد الآراء الفقهية والرؤى الاجتهادية تبعاً للاختلاف في فهم نصوص التشريع.

وهذا هو المعنى الثاني الذي تحدث عنه الشيخ اليعقوبي في كلمته، وهو معنى لم يتم التطرق له ضمن معاني التعددية الدينية إلا جزئياً، وعده في باب أسباب التنوع الديني

---

١٨ - نهج البلاغة: الخطبة ٥٣.هامش الكلمة.

١٩ - نهج البلاغة: الخطبة ٢٧ وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية. هامش الكلمة.



أولى من عده في باب المعاني للتعددية الدينية[٢٠]، إلا إذا اعتبرنا النتيجة التي ترتبت على ذلك التنوع في الفهم من معاني التعددية الدينية، وهذا يتضح أكثر من متابعة باقي النص.

في حديثه عن المعنى الثاني نقل الشيخ اليعقوبي الحديث بمستوى آخر ففي حين كان يتحدث في المعنى الأول عما مضمونه إن التعددية الدينية ليست مشكلة صار يتحدث هنا عن إنها حالة إيجابية ينبغي استثمارها، وهذا تقدم كبير في النظر للموضوع قلما يجري الحديث عنه.

حيث قال بعد ذكر المعنى الثاني، وإنه آراء الفقهاء في المسألة الواحدة قد تصل لأكثر من عشرة :" وهذه حالة إيجابية أصّل لها المشرِّع الإسلامي وتدل بعض الروايات على أنّ الأئمة (عليهم السلام) كانوا يتعمّدون إلقاء أجوبة مختلفة في الموارد الممكنة لمصالح مهمّة ذكروها"، فالمسألة ليست مجرد نتاج الفهم المختلف فقط، بل هي قد تكون في بعض الموارد مقصودة من المشرع، ويكمل قائلاً : " وتُعدُّ من المفاخر التي ورّثها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لأتباعهم هو فتح باب الاجتهاد وإعطاء حريّة النظر والاستنباط من المصادر الأصلية للتشريع (أعني القرآن الكريم والسنة الشريفة) ليعطي الفرصة لكل جيل أن يفهم النصوص الشرعية وفق ما تراكم لديه من إرث علمي وثقافي ونفسي واجتماعي مع مستجدات الواقع الذي يعيشه، والاستفادة من كل الأدوات المتوفّرة لديه بعيداً عن التقليد والجمود"، ويتوسع في الموضوع أكثر عاداً ذلك توجيهاً من الأئمة (عليهم السلام) ونوع من أنواع مراعاة الظرف الزماني وتطور الفهم، حيث يقول : " وقد أمر الأئمة (عليهم السلام) علماء الدين بأن لا يُقسِروا النصوص على فهم معيّن ويحصروها به، وإذا تعسّر عليهم شيء فليتركوا فهمه للزمان فسيأتي الجيل الذي يفهمه وفق متطلبات عصره ويأخذ حاجته منه. (سأل رجلٌ الإمام الصادق : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فأجابه الإمام : «لأن اللّه تعالى لم يجعله لزمان

---

٢٠ -تحدثنا عنه بشكل قريب جداً في السبب الثاني من أسباب التنوع الديني.

دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قومٍ غض، إلى يوم القيامة[٢١]) وروي عن ابن عباس أنه قال: (لا تُفسّروا القرآن فإن الدهر يُفسّره)".

وفي معرض حديثه عن إيجابيات هذا الحال "التعددية في آراء الفقهاء" يذكر جملة منها، نوردها بالنص ونعلق عليها:

النقطة الأولى: "إنها تعطي فرصة لكل جيل أن يفهم النصوص وفق متطلبات عصره وملابسات الزمان والمكان ونحوها من العناصر التي تشكّل قرائن لفهم النصوص الشرعية".

التعليق: ما يعني إن هناك متغيرات لعنصر الزمان وعنصر المكان وعنصر التكامل المعرفي وعنصر متطلبات العصر وعناصر أخرى مدخلية فيها، وهذه مساحة واسعة للتحرك قلما نجد من يقول بها من الفقهاء.

النقطة الثانية: "إنها تحمي الدين من أخطاء علمائه وحملته، فلو كان للشريعة فهم واحد فإنّ رفض هذا الفهم ينعكس على الدين نفسه فيؤدي إلى رفضه، كالذي حصل للكنيسة في العصور الوسطى حيث أدّى إكراهها لأتباعها على نمط معين للحياة إلى رفض الدين من الأساس، فتصوّروا لو أن الإسلام له صورة واحدة هي التي يسوّقها التكفيريون والإرهابيون فكيف ستكون النظرة إلى الإسلام نفسه؟ أما حينما توجد وجهات نظرٍ معتدلةٌ وحضاريةٌ فإنها تحمي الإسلام من تلك الرؤى الخاطئة".

التعليق: لدينا على هذه النقطة اكثر من تعليق:

أ-القول بأن علماء الدين وحملته ممكن أن يشكلوا خطراً على الدين نفسه، عبر التمسك بالفهم الواحد، فالتعدد في الفهم-أو إتاحة مساحة لذلك- يعطي البديل والعلاج لهذه المشكلة.

---

٢١ - بحار الأنوار. ج٢ ص٢٨٠. هامش الكلمة.

ب-مقارنة مع الكنيسة في العصور الوسطى حيث التمسك بحرفية النص وعدم قبول أي فهم آخر، وإكراه الاتباع على نمط حياة معين لا بديل عنه أدى إلى نفور الناس من الدين، وهذا الوضع غير موجود في الدين الإسلامي لوجود البدائل، وبالتالي فإن محاولة البعض للوصول لموقف من الدين استنتاجاً أو تقليداً حرفياً لما حدث في أوربا في القرون الوسطى أمر لا مبرر واقعي له.

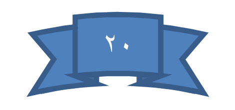
ج-القول بأن التعددية الفقهية في الدين الإسلامي أعطت مساحة لصور أخرى، وبالتالي فإن الصورة[٢٢] التي يعرضها التكفيريون والإرهابيون ويروج لها غيرهم لا يمكن الاكتفاء بها للتعرف على الإسلام لأن الحال فيه مختلف عن الكنيسة في هذه النقطة.

النقطة الثالثة: "إيجاد منافذ وخيارات بديلةٍ عند العسرِ والحرج ورفع التضييق عن الأمّة، فمثلاً شخصٌ يرجع إلى فقيهٍ يحرّمُ حلقَ اللحية وهو يجد حرجاً في تطبيقِ هذا الحكم فيرجع في هذه المسألةِ إلى فقيه آخر لا يرى حرمة حلقها وهكذا، لذا يلتزم الفقهاء بإرجاع أتباعهم إلى فقهاء آخرين في موارد الاحتياط الوجوبي وفق عمليّة منضبطة بقواعد، أي أنّ الفرد يلتزم بالرجوع إلى مرجع معيّن وهو الذي يراه جامعاً للمؤهّلات، ويرجع إلى غيره في حدود الرخصة التي يمنحها له مرجعُ تقليدِه.

فالعملية ليست عشوائية أو انتقائية بحيث يستطيع الشخص أن يرجع إلى من يشاء في كلّ مسألة بحسب أهوائه ومشتهياته فيختار آراءً شاذة في كل مسألة لأنّه سيصل في النهاية إلى دين مشوّه لا تُحفظ فيه المعالم العامّةُ والأساسيةُ للدين".

التعليق: في هذه النقطة من الإيجابيات للتعددية في آراء الفقهاء، يذكر الشيخ اليعقوبي إنها تتيح إيجاد منافذ وخيارات بديلة عند العسر والحرج، أياً كان سبب العسر والحرج بشرط أن يكون واقعياً وليس اشتهائياً، فيكون حصيلة ذلك دين مشوه لا تُحفظ فيه

٢٢ -إن قُبلت على إنها صورة من صور الفهم للإسلام وإلا فإنها في الواقع صورة فهم مشوهة.



المعالم العامّةُ والأساسيةُ للدين، وفي هذا إشارة واضحة إلى إن بعض صور الفهم لا تحفظ تلك الأسس والمعالم أو البعض منه والجمع بينها ينتج دين مشوه.

الخلاصة في إمكانية وجود نظرة إسلامية بناءة للتعددية الدينية

استناداً إلى المعاني التي ذكرها في كلمته يخلص الشيخ اليعقوبي إلى إن النظرة الإسلامية للتعددية الدينية بناءة وحضارية، فهي على المعنى الأول تساهم في حفظ وحدة المجتمع لما تضعه من أسس للتعامل مع حالة التنوع الديني، وعلى المعنى الثاني تساعد على " تطبيق الدين بمرونة في حياة الفرد والمجتمع وتحلّ الإشكالية بين الدين والثقافة أو العصرنة أو الحداثة ونحو ذلك".

لكن ذلك ليس بمنأى عن الاستخدام السيء، فصار التنوع الديني سبباً للإحتراب والتناحر والطائفية دفعاً من المنتفعين الذي يتاجرون بهذه القضايا، حفاظاً على امتيازاتهم، وجذباً للجديد منها.

وصار مساحة المرونة مساحة للاجتهادات الكيفية المربكة والتي أنتجت صور مشوهة تارة بحجة الرجوع إلى فعل السلف وتارة بحجة التحديث، وفي كلاهما مع فقدان الموازين الدقيقة للفهم وإعطاء الموضوع لغير أهله انتجا حالة سلبية نتلمس آثارها بوضوح في عالمنا المعاصر.

الخاتمة

إن التعددية الدينية نتاج تنوع ديني واقعي، ونتاج فهم لنصوص الدين نفسه أو المذهب نفسه، وهي حالة يمكن جعلها أداة لبناء مجتمع متحضر، ومساحة للحوار ورسم العلاقة مع الآخر بما يخلق مجتمعاً منسجماً وفهماً عصرياً للدين لا يتم فيه ضرب أسس ذلك الدين أو التخلي عن بعض التزاماته بحجة العصرنة، وبالتالي فإن التعددية بدلاً من النظر لها على إنها مشكلة ينبغي التخلص من جذورها عبر نفي الحقيقة أو القول بنسبتها أو عبر رفض الدين والخالق يمكن النظر على إنها مشكلة قابلة للحل بل يمكن النظر لها على إنها مشكلة يمكن الاستفادة منها إيجابياً بل يمكن النظر لها على إنها حالة إيجابية وليست مشكلة.

الملحق:

التعدُّديّةُ الدينيةُ في أفُقِ حِوارِ الحضارات

بسمه تعالى

التعدُّديّةُ الدينيةُ في أفُقِ حِوارِ الحضارات﴿١﴾

السلام عليكم أيّها الحفل الكريم ورحمة الله وبركاته

لابد من تحديد معنى التعدّدية الدينية قبل الحديث عن دورها في حوار الحضارات، ويمكن أن يُراد بالتعدّدية الدينية معنيان:

المعنى الأول: تعدّد الأديان والطوائف في المجتمع الواحد، كالموجود عندنا في العراق، وهي حالة طبيعية وقد تعامل المشرِّع الإسلامي معها كواقع موجود نتيجة حرية الاختيار وهو مبدأ أساسي في الشريعة الإسلامية (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة/٢٥٦) (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة/٦٢).

وقد منحتهم الدولة الإسلامية تمام الحقوق التي تُمنح لرعايا الدولة، لأنّ أساس الاستحقاق هي المواطنة التي يشترك فيها الجميع، أمّا الدين والمذهب والقومية ونحوها فلا تؤثر في استحقاق المواطنين، بل تحمّل أمير المؤمنين (عليه السلام) انشقاقات رموز كبيرة في المجتمع أدّت إلى حروب طاحنة بسبب سياسته العادلة هذه بينما أراد الآخرون أن تتمايز الطبقات في الاستحقاقات والامتيازات، وهي ثقافة كان قد تطبّع عليها المجتمع وسار عليها، لكنّها مرفوضة في سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) ربيب رسول الله (صلى الله عليه وآله).

والشواهد في حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) كثيرة كحادثته مع النصراني المكفوف حيث كان الإمام (عليه السلام) في شوارع الكوفة.. فمر بشخص يتكفف وهو شيخ كبير

السن، فوقف (عليه السلام) متعجباً وقال (عليه الصلاة والسلام): (ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين إنه نصراني قد كبر وعجز ويتكفّف، فقال الإمام (عليه السلام): ما أنصفتموه.. استعملتموه حتى إذا كبر وعجز تركتموه) .﴿٢﴾

ولما ولّى أمير المؤمنين مالك الأشتر مصراً، كتب له عهداً مطوّلاً في كيفية إدارة الدولة وكانت وصيّته للرعيّة ـ أي المواطنين ـ جميعاً على حدٍّ سواء، كقوله (عليه السلام) (وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ)﴿٣﴾ وغيرها من دون ملاحظة أي اختلافاً بينهم، فهم متساوون في حقوق المواطنة.

بل تصل حالة التعاطف والنظرة المتساوية للجميع على حدٍّ سواء إلى درجة بحيث يتقطّع قلب أمير المؤمنين (عليه السلام) أسفاً ويجد الموت أهون عليه لّما بلغه أن جنداً لمعاوية أغاروا على الأنبار وسلبوا النساء وفيهنّ غير مسلمات (معاهدات)، قال (عليه السلام): (ولَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالأُخْرَى الْمُعَاهَدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا، وَرِعَاثَهَا ، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالإِسْتِرْجَاعِ وَالإِسْتِرْحَامِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً).﴿٤﴾

ويشهد التأريخ الإسلامي بأنّ المسيحيين واليهود والصابئة تبوّأوا مواقع رفيعة في حكومات الدولة الإسلامية وبرعوا في أنواع العلوم وأسماؤهم معروفة وبعضهم مشهور ممّا يعني أنّهم نالوا فرصاً متساوية مع المسلمين.

المعنى الثاني: تعدّد الآراء الفقهية والرؤى الاجتهادية تبعاً للاختلاف في فهم نصوص التشريع حتّى تصل أقوال الفقهاء في مسألة واحدة إلى أكثر من عشرة، وهذه حالة إيجابية أصّل لها المشرِّع الإسلامي وتدل بعض الروايات على أنّ الأئمة (عليهم السلام) كانوا يتعمّدون إلقاء أجوبة مختلفة في الموارد المكنة لمصالح مهمّة ذكروها﴿٥﴾، وتُعدُّ من المفاخر التي ورّثها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لأتباعهم هو فتح باب الاجتهاد وإعطاء حريّة النظر والاستنباط من المصادر الأصلية للتشريع (أعني القرآن الكريم والسنة الشريفة) ليعطي الفرصة لكل جيل أن يفهم النصوص الشرعية وفق ما تراكم

لديه من إرث علمي وثقافي ونفسي واجتماعي مع مستجدات الواقع الذي يعيشه، والاستفادة من كل الأدوات المتوفّرة لديه بعيداً عن التقليد والجمود.

وقد أمر الأئمة (عليهم السلام) علماء الدين بأن لا يُقسِروا النصوص على فهم معيّن ويحصروها به، وإذا تعسّر عليهم شيء فليتركوا فهمه للزمان فسيأتي الجيل الذي يفهمه وفق متطلبات عصره ويأخذ حاجته منه. (سأل رجلٌ الإمام الصادق : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فأجابه الإمام : «لأن اللّه تعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قومٍ غض، إلى يوم القيامة (٦) وروي عن ابن عباس أنه قال: «لا تُفسّروا القرآن فإن الدهر يُفسّره).

وتظهر إيجابية هذه التعدّدية في آراء الفقهاء من أكثر من جهة:

١- إنها تعطي فرصة لكل جيل أن يفهم النصوص وفق متطلبات عصره وملابسات الزمان والمكان ونحوها من العناصر التي تشكّل قرائن لفهم النصوص الشرعية.

٢- إنها تحمي الدين من أخطاء علمائه وحملته، فلو كان للشريعة فهم واحد فإنّ رفض هذا الفهم ينعكس على الدين نفسه فيؤدي إلى رفضه، كالذي حصل للكنيسة في العصور الوسطى حيث أدّى إكراهها لأتباعها على نمط معين للحياة إلى رفض الدين من الأساس، فتصوّروا لو أن الإسلام له صورة واحدة هي التي يسوّقها التكفيريون والإرهابيون فكيف ستكون النظرة إلى الإسلام نفسه؟ أما حينما توجد وجهات نظرٍ معتدلةٌ وحضاريةٌ فإنها تحمي الإسلام من تلك الرؤى الخاطئة.

٣- إيجاد منافذ وخيارات بديلةٍ عند العسرِ والحرج ورفع التضييق عن الأمّة، فمثلاً شخصٌ يرجع إلى فقيهٍ يحرّمُ حلقَ اللحية وهو يجد حرجاً في تطبيقِ هذا الحكم فيرجع في هذه المسألةِ إلى فقيه آخر لا يرى حرمة حلقها وهكذا، لذا يلتزم الفقهاء بإرجاع أتباعهم إلى فقهاء آخرين في موارد الاحتياط الوجوبي وفق عمليّة منضبطة بقواعد، أي أنّ الفرد يلتزم بالرجوع إلى مرجع معيّن وهو الذي يراه جامعاً للمؤهّلات، ويرجع إلى غيره في حدود الرخصة التي يمنحها له مرجعُ تقليدِه.

فالعملية ليست عشوائية أو انتقائية بحيث يستطيع الشخص أن يرجع إلى من يشاء في كلّ مسألة بحسب أهوائه ومشتهياته فيختار آراءً شاذة في كل مسألة لأنّه سيصل في النهاية إلى دين مشوّه لا تُحفظ فيه المعالم العامّةُ والأساسيةُ للدين.﴿٧﴾

والخلاصة إن وجهة نظر الإسلام في التعدّدية الدينية بنّاءة وحضارية على كلا المعنيين.

أما على الأول فإنها تساهم بشكل بنّاء في حفظ وحدة المجتمع وحفظ حقوقه على أساس المواطنة التي يتساوى فيها الجميع، وعلى المعنى الثاني تساعده على تطبيق الدين بمرونة في حياة الفرد والمجتمع وتحلّ الإشكالية بين الدين والثقافة أو العصرنة أو الحداثة ونحو ذلك.

لكنّ هذا المنهج النقي السامي لتعاطي الشريعة الإسلامية مع التعدّدية الدينية تَعرّضَ بكِلا معنييه إلى الاستغلال السيّئ، فتحوّل المعنى الأول إلى حالة من الاحتراب والطائفية والتعصّب على يد تجّارٍ مستفيدين من هذه الصراعات لتنفيذ مآربهم وتحقيق مصالحهم الخاصة ولا دخل للدين فيها.

كما انّ المعنى الثاني جعله بعض أهل الحداثة ودعاة التجديد غير المقنّن منفذاً لمسخ الدين والتنصّل من التزاماته بدعوى أن كلَّ الأحكام الموجودة هي عبارة عن رؤى اجتهاديةٍ لأصحابها ولا تمثّلُ الدين نفسَهُ فلا وجهَ للالتزام بها، وهذا تفكيرٌ غير سليم لأنّ فتاوى المجتهدين هي تعبير عن الأحكام التي قامت الحجّة الشرعية على وجوب العمل بها بعد الفحص عن المجتهد الجامع لمؤهلات المرجعية.

آمل أن يُوفَّقَ مؤتمرُكُم المباركُ لإشباعِ هذه القضيةِ بحثاً وتحليلاً لإنضاجِ المواقفِ وجعلِها مُثمرةً بإذنِ اللهِ تعالى.

محمد اليعقوبي-النجف الأشرف

٢٠/ع٢٦/ ١٤٣٥

٢٠١٤/٢/٢٠

الهوامش:

﴿١﴾ كلمة سماحة المرجع اليعقوبي (دام ظله) تلبية لدعوة وجّهتها رئاسة جامعة الكوفة لسماحته للمشاركة في مؤتمر عُقد في جامعة الكوفة بالتعاون مع معهد الدراسات العقلية في النجف تحت نفس العنوان يومي ٢٠-٢١/ ٢/ ٢٠١٤ بحضور علماء ومفكرين ومهتمين بقضية التقارب بين الأديان من عدد من الدول الإسلامية.

﴿٢﴾ وسائل الشيعة: ج١١ ص٤٩ باب١٩ ح١.

﴿٣﴾ نهج البلاغة: الخطبة ٥٣.

﴿٤﴾ نهج البلاغة: الخطبة ٢٧ وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية.

﴿٥﴾ راجع كتابنا (الفقه الباهر في صوم المسافر: ١٤٠).

﴿٦﴾ بحار الأنوار. ج٢ ص٢٨٠.

﴿٧﴾ قال ابن الحجّاج متهكّماً بفتاوى شاذة لدى أئمة المذاهب الأربعة:

فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج فــي كــلّ مسـألة يـقــول إمــامُ

للتواصل مع المؤلف

الفيس بوك:(حساب شخصي):

رشيد السراي

الفيس بوك (صفحة عامة):

رشيد حميد السراي

البريد الإلكتروني:

rasheedasarai@yahoo.com

rasheedasarai@gmail.com